هربوا من القصف فدفنتهم الرمال!

لم يعد الموت في غزة يحتاج إلى صاروخ أو قذيفة فمن نجا من القصف ولجأ إلى خيمة قد يجد نفسه أمام خطر آخر: أمطار تغمر مأواه، وبرد ينخر عظمه، وركام يسقط فوق رأسه، ورمال تنهار فتدفنه.

ما حدث مؤخرا من انهيار جرف رملي فوق خيام نازحين في دير البلح وما أُبلغ عنه من سقوط ضحايا بينهم أطفال ونساء، يكشف عن مأساة أخرى تتجاوز حدود الحادثة نفسها. فالكارثة ليست في الأحوال الجوية التي تحدث في جميع أنحاء العالم ولكن في واقع إنساني بالغ الهشاشة صنعه الدمار والنزوح وغياب المأوى الآمن ونقص إمكانات الإنقاذ.

لقد أصبحت الخيمة التي يفترض أن تكون ملاذا مؤقتا، أصبحت مكانا لا يضمن الحد الأدنى من الحماية، فالنازحون يواجهون أخطارا متراكمة: القصف، والنزوح المتكرر، والسيول، والبرد، وقلة المياه، وتدهور الصرف الصحي ونقص الرعاية الطبية وهكذا قد ينجو المرء من القصف ثم يواجه الموت بهذه الحالات منفردة أو مجتمعة.

الأسباب التي جعلت الخيم مصائد للموت:

أولا: الدمار الواسع الذي أصاب المساكن والطرق وشبكات المياه والصرف الصحي قلص المساحات الصالحة للإيواء وأضعف قدرة المدن والبلديات على تصريف مياه الأمطار.

ثانيا: عمليات النزوح القسري وتكدس العائلات في مناطق منخفضة أو ساحلية أو بمحاذاة تلال رملية قد لا تكون مستقرة.

ثالثا: عدم كفاية المأوى المتاح فالخيمة العادية لا تقي من السيول ولا تصلح بديلا عن مسكن آمن.

رابعا: نقص المعدات الثقيلة والجرافات ومضخات المياه وآليات الدفاع المدني ما يبطئ الاستجابة ويصعّب إنقاذ المحاصرين.

خامسا: تدهور الخدمات الصحية وانتشار المياه الملوثة والرطوبة والبرد بما يرفع مخاطر الأمراض خصوصا بين الأطفال وكبار السن.

وتشير تقارير إنسانية أممية إلى اتساع الأضرار التي لحقت بمواقع النزوح جراء الأمطار، وإلى نقص حاد في مواد الإيواء والإمدادات اللازمة. كما أن وجود مساعدات أو خيام خارج القطاع لا يكفي ما لم تتوافر آلية تضمن إدخالها سريعا وآمنا وتوزيعها وفق الحاجة.

من يتحمل المسؤولية؟ يتحمل كيان يهود المسؤولية الرئيسية عن الظروف التي أفضت إلى هذا الانهيار الإنساني، بالنظر إلى الحرب وما خلفته من تدمير واسع وإلى القيود المفروضة على دخول الإمدادات والمعدات

الضرورية، وبموجب القانون الدولي الإنساني تظل حماية المدنيين وتيسير وصول الإغاثة الإنسانية لهم من الالتزامات الأساسية ولا يجوز جعل احتياجاتهم الضرورية رهينة للمساومة السياسية أو العسكرية.

وتتحمل أمريكا مسؤولية كبيرة بحكم نفوذها وقدرتها على التأثير في الكيان. فالدعوات إلى حماية المدنيين لا تكفي إذا لم تترجم إلى ضغط فعلي يضمن وصول المساعدات ووقف الانتهاكات.

أما النظام الدولي فتقع عليه مسؤولية العجز عن تحويل المواقف والبيانات إلى إجراءات مؤثرة، وعلى الدول القادرة أن تستخدم أدواتها الدبلوماسية والقانونية والاقتصادية لحماية المدنيين.

ما هي الحلول العملية للخروج من هذا المأزق؟

مهما طرحنا من حلول لن تؤتي أكلها طالما أن من يتحكم بمصير أهل غزة هم أعداؤنا وبمساعدة حكامنا، لهذا فإن أي اقتراح على أهميته لن يكون حلا جذريا ما دامت أسباب الكارثة قائمة.

المنطق يقول لا بد من وقف الاعتداءات وحماية الناس ورفع القيود التي تمنع وصول الاحتياجات الأساسية وتهيئة شروط عودة آمنة وطوعية للنازحين وإعادة الإعمار؛ لأن الإغاثة ضرورة عاجلة. ورغم رفض حكامنا لهذا المنطق حيث لا يرون أهل غزة جزءا من مسؤوليتهم، وليسوا مستعدين لخسارة اليهود لأجل طفل فيها، إلا أن هذا الحل يعتبر حلا مؤقتا فهو ليس بديلا عن معالجة جذور الأزمة التي تتلخص بطرد المحتل والقضاء على أذرعه في بلادنا.

يا أمة رسول الله: لم تكن الرمال هي العدو ولا المطر هو العقاب، إنما الجريمة أن يترك الإنسان بلا مأوى يحميه وأن يصبح أبسط حق في الحياة: سريراً آمناً وسقفاً يقيه البرد!

إن غزة لا تطلب منكِ الدعاء ليتوقف المطر وإنما تطلب حق أطفالها في أن يناموا دون خوف من صاروخ أو انهيار خيمة أو سيل يجرفهم. فإلى متى سيظل الفلسطيني يدفع ثمن قضية أمة بينما الأمة تكتفي بالدعاء؟!

يجب على الأمة أن تدرك حجم المأساة التي تعيشها بسبب غياب خلافتها، ولا بد أن يتشكل لديها يقين أنها لن تنجو بدونها. لذلك يجب عليها أن تعمل لاستعادتها واصلة ليلها بنهارها؛ فهي التي ستعيد لنا كرامتنا وتغيث ملهوفنا وتطعم جائعنا، قال تعالى: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَّاءً غَدَقاً**﴾.

كتبته لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

منال أم عبيدة